عدد خاص

المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الجاحظ - الجمهورية العراقية

المجلد الثامن - العدد الرابع 1400 - 1979

4

WWW.ATTAWEEL.COM

أسعد الدين محمد

بغداد سنة ١٩١٧

ترجمة وتعليق الدكتور

محمد مظفر الأدهمي

الجامعة المستنصرية ـ بغداد

« ان على هؤلاء الذين ينكرون سحر هذه المدينة ان يقفوا على النهر من جهة الشمال وقت الغروب ليشاهدوا الامتداد الرشيق لجبهة النهر حيث تصطف المساجد والمنارات ذات الآجر الازرق لتمسك بخيوط اشعة الشمس الماثلة » .

"Edmond Candler

ادموند كاندلر هو احد الذين رافقوا قوات الاحتلال البريطاني التي دخلت بغداد في ١١ آذار ١٩١٧ ، وكتب مذكراته عن هذه الحملة في جزءين نشرا عام ١٩١٩ في لندن . اطلق كاندلر على كتابه اسم "The Long Road to Baghdad" : الطريق الطويل الى بغداد ـ شاهد عيان في بلاد وادي الرافدين ـ قدم فيه عرضا كاملا للحملة على العراق منذ نزولها الى الفاو ؛ كما انه قدم وصفا للمدن التي مر بها جيش الاحتلال ، فكان كتابه استعراضا جغرافيا اجتماعيا اكثر منه عرضا للعمليات العسكرية .

توقف كاندلر طويلا عند وصفه لبغداد ؛ ولم اجد احدا فيما اطلعت عليه من المؤلفات ، قد كتب عن بغداد عند دخول قوات الاحتلال البريطاني اليها مثلما كتبه كاندلر . لقد تعرض الى وصف ثلاثة جوانب رئيسة هي : ـ

١ ـ حالة العامة من الناس عند دخول القوات المحتلة بغداد .
٢ ـ بغداد كما تركها الاتراك المنسحبون .
٣ ـ جمال البيوت والطبيعة .

ولكي اضع القارىء في الصورة لابد من التنويه الى ان بغداد كانت ، في فترة دخول المحتلين البريطانيين اليها ، تعيش انحسارا حضاريا تمتد جذوره الى سقوط الدولة العربية الاسلامية حينما احتل الغزاة المغول بغداد سنة ١٢٥٨م . لذلك فان الوصف الجميل الذي يعرضه كاندلر تحف به ، ولاشك ، بعض الجوانب السلبية التي كانت المدينة تعيشها ؛ الا ان هذه المظاهر السلبية تكتشف في الوقت نفسه الفرق الحضاري بين ذلك الواقع وبين ما كانت عليه بغداد ايام ازدهارها زمن العباسيين وما هي عليه الان في تطورها الحضاري المعاصر . ومع ذلك فان التراث الحضاري تبقى آثاره قائمة في أي زمان ، ولا يمكن لاي شاهد ان يتغاضى عنه . وقد كان كاندلر امينا في وصفه لنا بغداد .

في فصله المتعلق ببغداد المسمى: "First Days in Baghdad" : الايام الاولى في بغداد ، والمنشور في الجزء الثاني من المذكرات ، يبدا كاندلر بوصف احوال المدينة عند دخول القوات البريطانية المحتلة اليها بعد ان انسحب منها الاتراك دون قتال فيها . لقد انسحب الاتراك من بغداد في الساعة الثانية صباحا من يوم ١١ آذار وبقيت المدينة سائبة لمدة سبع ساعات الى ان دخلها المحتلون الجدد في الساعة التاسعة صباحا من اليوم نفسه من جهة الباب الشرقي في جانب الرصافة : ـ

WWW.ATTAWEEL.COM

« عند تقدمنا نحو بغداد سرنا في طريق لا اسم له ، باتجاه سدة مخربة تنتصب آثار البوابة الجنوبية . ثم درنا يسارا فوجدنا انفسنا قرب النهر بواجهة طلائع البيوت الكبيرة على ضفة نهر دجلة . ان هذه البيوت تشكل مدخلا مفاجئا للمدينة . دخلنا المدينة وكان هناك جمع كبير من الناس على جانبي الطريق ... كانت الاسواق خالية تقريبا ، فقد صادر الاتراك المؤن والبضائع وكان اخر قطار تركي قد غادر بغداد في الصباح الباكر من يوم ١١ آذار . لقد قال احد التجار بانهم فقدوا ما قيمته مليونين فرنك من البضائع بين الساعة الثانية صباحا وبين ساعة دخولنا بغداد في التاسعة صباحا ...

عندما تقدمنا في المدينة شاهدنا العديد من اللصوص والسراق يحملون الشبابيك والمناضد وهياكل اسرة النوم الثقيلة المصنوعة من الخشب او الحديد . كذلك المقاعد واسيجة الحدائق العامة لقد ازالوا كل شيء كان من السهل ازالته .

تقدمنا في شارع خليل باشا وهو الشارع العريض الوحيد في المدينة . لقد اطلق عليه اسم شارع هندنبرك بمناسبة سقوط الكوت ــ اندحار القوات البريطانية في حصار الكوت ــ انه ليس بشارع جميل او جذاب . لقد كانت عملية تطويره متقطعة واوقات اصلاحه متباعدة . التهديم موجود في كل مكان . ان الجدران والاعمدة ذات الاجر المفتت لا تزال منتصبة في الشارع .

لقد مررت ببغداد قبل تسعة عشر عاما ولم يكن هناك طريق للنقل في الجانب الايسر من النهر كانت هناك بعض الاماكن القليلة للجمال في بعض الشوارع ، كما كانت هناك الحمير البيضاء الصغيرة المتوفرة والتي لا يترفع الاغنياء عن الركوب عليها . اذكر انني ركبت في عربة بطيئة تسحبها اربعة بغال من بغداد الى بابل والحلة وبرس نمرود » .

يتنقل كاندلر الى وصف محلات وبيوت بغداد والتي كان قد رآها ــ قبلا ــ منذ تسعة عشر عاما فيقول : ــ

« على جانبي شارع خليل باشا والذي يمتد داخل المدينة موازيا للنهر ، لم تتغير محلات المسلمين والمسيحيين واليهود ، ان الشوارع الضيقة لا تساعد على مرور حصان ، اما الشبابيك المقوسة الواسعة والتي تغطي عادة واجهات البيوت فهي على وشك ان يلتقي بعضها بالبعض . كانت هناك نسوة يطللن من كل شباك من هذه الشبابيك ، محجبات وغير محجبات . ان ذلك يعتمد على المحلة فيما اذا كانت مسلمة ام مسيحية او يهودية . ان نقوش الشبابيك متآكلة ، اما الابواب فهي مرصعة بالمسامير يحمل كل باب منها مطرقة نحاسية جذابة . في الازقة ، حيث يمكن للشخص ان يمس الحائطين المتقابلين للزقاق عند مد ذراعيه الى الجانبين ، تنفتح بوابة الدار على ساحة عريضة مزروع في وسطها اشجار البرتقال والرمان . وكما في مدن الشرق القديمة فان مجازا ضيقا يفضي الى رحبة الدار هذه .

ان سطوح البيوت تقدم للمغامر والعاشق واللص طريقا تمتد اميالا طويلة ؛ اما الشبابيك فان بامكان روميو وجوليت ان يتحادثا منها بهمس » .

يخرج بنا كاندلر من ازقة بغداد القديمة وبيوتها العريقة ليقدم وصفا لحياة الشارع : ــ

« في المقاهي يجلس الناس مجتمعين منهمكين بأحاديثهم او في التفكير او يلعبون الطاولة والدومنة، كان هناك قليل من القهوة للشرب ؛ وكانت السيكاير شحيحة ، انه جمع كئيب . بعد ساعة من دخولنا لم يعد يبالي الناس بوجود الجيش المحتل . انني اذكر الاسواق التي كانت تمثل حياة المدينة ، لقد اصبح الان منظرها كئيبا : الدكاكين فارغة ومغلقة وقد خرب قسم منها . انها ستحتاج وقتا طويلا كي تمتلىء بالبضائع ...

في هذه الطرق ذات الاقواس والسراديب . والتي ازدحمت بعربات النقل والقوات والاسلحة ، يشاهد الانسان الوانا غريبة : عجلات الجزء الامامي من مدفع زنة ٦٠ باوند هدمت سقف احد السراديب ونزلت فيه لتكشف عن رأس يهودي مفزوع ، فيما قد مد بغل سرية مشاة فمه في صحن حلويات تحمله فتاة مهملة، بينما تشاهد في مكان اخر متسول فارسي سمين يقف على عتبة احد الدور يولول معبرا عن جوعه .

لقد نسي جنودنا تعب المطاردة الطويلة عندما دخلوا المدينة كان تراب بغداد مسكنا لالام ارجلنا لكنه لم يكن التراب السحري الذي صورته لهم قصة الليالي العربية الساحرة ، انها ليست مدينة هارون الرشيد التي سمعنا بها ، او نبوخذنصر الذي اردنا مشاهدته » .

كانت محطة القطار تقع في جانب الكرخ والذي كان حجمه صغيرا جدا قياسا بجانب الرصافة

ـ انظر الخارطة ـ لقد وصلت دوريات التفتيش البريطانية المحطة في الساعة ٥ر٥ من صباح يوم ١١ اذار ، اي قبل دخول الجيش المحتل بغداد من جانب الرصافة يقول كاندلر الذي عبر الى جانب الكرخ بعد احتلال الرصافة : ـ

« غادر اخر قطار بغداد في الساعة الثانية صباحا . لقد كان هناك اندفاع نحو دائرة الحجز المهجورة بحثا عن بطاقات سفر الى اسطنبول وبرلين . لقد وجد احد جنود الدورية بيان وقت مغادرة القطار . ان ضباط الـ Blak Watch سيضلون نادمين لانهم لم يحملوا معهم جرس المحطة للذكرى ... كانت محطة اللاسلكي قد انجزت لتوها بتكاليف باهضة ـ في جانب الكرخ ـ وهي من التاسيسات الضخمة التي بناها الالمان ، وكانت على اتصال مباشر مع برلين . لقد فجر الاتراك جهاز الارسال في الصباح المبكر ليوم ١١ اذار وانهدم سطح المحطة ، كما كانت هناك حفرة عميقة في وسط الارض ، اما المرسلة فقد سقطت على الحيطان المجاورة ، كما فجروا احد السخانات الكبيرة ...

انها لراحة نفسية ان نغادر منظر الخراب العلمي ونعبر النهر مرة ثانية بواسطة (الكفه * المدورة التي عرفت منذ زمن نبوخذنصر ..... في الساعة ٩ر٣٠ من صباح يوم ١١ آذار عبرت ثلاث كتائب تابعة للواء ٣٥ من الجانب الايمن الى الجانب الايسر ـ من الرصافة الى الكرخ وبعد احتلال الرصافة بنصف ساعة ـ واقامت حامية هناك لقد كان على هذه الكتائب ان تعبر النهر بواسطة (الكفف) لان جسر القوارب الخشبي نسف ودمر من قبل الاتراك . كما احتل الكاظمية لواء الفرسان » .

اقام كاندلر في فندق Hotel Tigris ، الذي يصفه بانه قد اقيم على طراز اوربي على النهر في جانب الرصافة ، ويذكر انه قد تناول عشاءه في الفندق مساء يوم ١١ اذار وقد سأله صاحب الفندق عن اسم قائد جيش الاحتلال فاخبره به ، وفي اليوم التالي اصبح اسم الفندق Hotel Moude ويبدو لي ان هذا الفندق هو فندق Tigris Palace المعروف اليوم باسم قصر دجلة الذي يقع في شارع الرشيد على جبهة النهر والتي قدم كاندلر وصفا لها حيث قال : ـ

« لم يكن هناك طريق محاذ لجبهة النهر . لقد بنيت البيوت الرئيسة والقنصليات مباشرة على النهر فوق ارصفة متينة تشبه الحصون . ان معظم هذه البيوت لها حدائق صغيرة ذات ادراج حجرية تنزل الى النهر . في المسافات الفاصلة بين هذه البيوت توجد ممرات ، وفي بعض الحالات تخترق هذه الممرات اقواسا من تحت البيوت حيث تاخذ النساء الماء من النهر باوعية نحاسية ذات اعناق طويلة محززة . وهناك البلام(*) ينتظر من يؤجره ، وكذلك السقائين الذين يملؤن قربهم بالماء ليحملونها على ظهور حميرهم البيضاء » .

ينتقل كاندلر بعد ذلك الى منطقة السراي في الرصافة فيقدم لنا وصفا دقيقا عما كان عليه السراي الحكومي عند دخول البريطانيين المحتلين اليه : ـ

« في النهاية الشمالية من المدينة يقع السراي المدني والعسكري ، وهو يغطي مساحة ربع ميل على جبهة النهر . وتقع فيه ثكنات الجنود المشاة ومحكمة العدل ومجلس الولاية وجميع المكاتب الحكومية للولاية العثمانية . توجد هنا مساحة واسعة لجميع القوات التي تحتاجها المدينة للحماية .

الابنية المحيطة بالساحة واسعة وقوية البناء. تتم عملية التهوية في السرداب او المكاتب التي تقع تحت الارض بواسطة فتحات ومداخل تمتد الى السطوح ان درجة الحرارة في السرداب اقل مما هي على سطح الارض بحوالي ٨ ـ ١٠ درجات ...

ان المرء يحتاج اياما عديدة لاستكشاف ما في بنايات السراي ، فهناك الشيء الكثير الذي يمكن معرفته من النفايات التي تركت في عاصمة تخلت عنها حكومة لم يكن لديها الوقت الكافي للفرار . كنا نفتش الدوائر الحكومية بعد ١٢ ساعة من انسحاب الاتراك . لقد وجدنا في كل غرفة تقريبا اشياء كان الاتراك حتما مترددين في تركها خلفهم لولا صعوبة النقل . لقد وجدنا في احدى الدوائر خرائط مسح وفي الاخرى قوائم بالعائدات التجارية . وفي غرفة ثالثة عثرنا على الحقائب الرسمية وبطاقات العضوية الخاصة بلجنة الدفاع الوطني . اما اوراق قسم الارواء فقد كانت مبعثرة في ساحة تتوسطها حديقة برتقال ، في حين كانت الخرائط والخطط التي رسمها وليم ولكوكس معلقة على الحيطان او منثورة على الارض في احدى الغرف .

في قلعة السراي كانت اكداس الاسلحة تنمو

---

* كلمة دخيلة وهي في العامية العراقية بمعنى صاحب الزورق او الملاح (المورد)

وترتفع مع استمرار تفتيش المدينة بيتا بيتا . لقد وجدنا الى جانب البنادق والسيوف والمدسات كميات كبيرة من المعدات عديمة الفائدة من وجهة النظر العسكرية ، الا انها مثيرة للفضول . فهي تبتديء بخراطيش المدافع الفارغة القديمة والتي تعود لزمن السلطان مراد وتنتهي بالبنادق التي تركناها في الكوت في العام الماضي .

لقد نقشت على فوهات المدافع اشكال لجنود محاربين وحيوانات تتوسطها نقوش كتابية بالعربية والفارسية . « نصر من الله وفتح قريب » نقش تحمله احدى هذه المعدات الصلبة يعود تاريخه الى عام ١٥٤٦م . في مكان اخر « الشاه صفوي ملك النصر سيمحي اثر الاتراك . ان هذا المدفع ينفث النار ويقذف اللهب على الاتراك كالتنين » .

يتحول كاندلر الى مكان اخر من بغداد ليصف لنا المقابر في جانبي الرصافة والكرخ والاجواء التي شعر بها عند ارتياده هذه المناطق : ـ

« ان اللون الوحيد الذي يمكن مشاهدته في بغداد وضواحيها هو اللون الازرق والذهب القديم اللذان يغطيان المساجد والمنارات ان هذه الفسيفساء البراقة تشكل تغييرا مريحا للاعصاب في بلد اختفت الوانه بسبب التراب الذي يغطي ارض وحيطان وسقوف البيوت ، اضافة الى ذرات الغبار الحارة التي تعوم فوق كل شيء .

كما هو معروف في المدن الاسلامية القديمة فان ابرز ظاهرة في ضواحيها هي المقابر . ففي داخل السدة التي تطوق المدينة ـ جانب الرصافة ـ تزدحم المقابر حيث تنتشر رائحة تعفن جافة . اما الطريق الواقعة خلف السدة والتي تعود الى ايران عبر الصحراء فان العلامة البارزة فيها هي الهياكل العظمية والعظام المنكدسة . ان كل علامات الطريق عبارة عن مساجد او قبور .

في الجانب الايسر ـ الكرخ ـ ترقد زوجة هارون الرشيد تحت منارة طويلة محززة الحافات وذات نهاية مستدقة ، انها تشبه شجرة التنوب المخروطية الشكل . ان التلة التي تمتد من الضريح الى الجامع تزدحم بالقبور لدرجة انه لا يوجد مكان لدفن جثة طفل عمره شهر واحد . عندما كنا نسير قرب المكان جلب جثمان ملفوف بالشراشف ومحمول على تخت خشبي ، ولم يكن بالامكان دفنه في هذا المكان المزدحم ، فكان اقرب مكان ممكن هو بستان النخيل المترب المقابل للمقبرة حيث وقف النداب المختص يولول ناثرا التراب الذي كان يتطاير نحونا . انه الشيء الوحيد الذي يعج بالحياة في هذا المكان الميت . واكثرهم موتا زبيدة في قبرها ـ الشائع ان اسم قبر زوجة هارون الرشيد هو الست زبيدة في حين ان الاسم الصحيح هو زمرد خاتون ـ لقد ماتت معها رومانسيتها واساطيرها ، وذبلت وجفت معها كل حيوية الابحاء الرومانسي في هذه الايام الشديدة » .

* * *

يقول كاندلر : ان هناك كثيرا من المسائل الانسانية التي تجلب الانتباه في بغداد ، اما بالنسبة لهؤلاء الذين يبحثون عن الاسود في هذه المدينة العريقة المهدمة الان والمليئة بالاوساخ فان من الصعب تصور شعورهم لان ما توقعوا مشاهدته لم يجدوه : انهم سيصحون من اوهامهم حالا » .

مكث كاندلر في بغداد الى نهاية مايس وقد مكنه ذلك من مشاركة البغداديين في النوم على السطوح :ـ

« في نهاية مايس كانت حرارة الصباح تحتمل الا ان حرارة الشمس قد بدات ترتفع . تمشيا مع عادة اهل البلاد ، فقد كنا ننام فوق السطوح . في اوائل نيسان كانت جميع سطوح المنازل مهجورة ، الا ان حلول شهر مايس قد دفع كل بغدادي ، رجل وامراة وطفل ، الى الالتجاء الى السطوح للنوم . عندما يستيقظ المرء في الصباح ويلقي نظرة على سطوح المنازل فانه لا يرى غير بحر من الفرش واسرة النوم . ان افضل طريقة للنوم هي ان تلف سريرك ببرقع شفاف للتخلص من الذباب في الصباح ان الفقراء ينامون على دكة قوية ويلتفون باللحاف . في الدار الصغيرة المجاورة لنا كانت تسكن ثلاثة عوائل لديهم ٢٨ طفلا ينامون في السطح على عشرة اسرة كبيرة مربعة تشبه المنابر الخشبية محاطة باسيجة لتمنع الصغار من السقوط . ان البحث عن الحشرات في الصباح يفترض ان النوم في تلك الليلة لم يكن مريحا . شاهدت على احد السطوح خروفا وفي سطح اخر ديك رومي بينما ينتصب اللقلق على